الفصل الثالث

أي حداثة يريدها لنا الغرب؟

وأي حداثة نريد؟

د.أحمد إبراهيم هندي داود(*)

لاشك أن العالم العربي والإسلامي ـ ومنه مصر بطبيعة الحال ـ قد وضع على محك الاختبار العملي بالاحتكاك بالغرب في العصر الحديث، بدءاً بالحملة الفرنسية ومحاولة احتلال مصر، والحملة الإنجليزية التي أعقبها الاحتلال الإنجليزي لمصر، وما ماثل ذلك من حملات غربية كان عاقبتها احتلال الغرب لمعظم دول العالم الإسلامي.

ولقد كان هذا الاحتلال وإسقاط الخلافة الإسلامية وتقسيم تركة الرجل المريض مؤذنا باحتكاك فعلى مع المدنية الغربية، حاول فيه المحتلون طبع البلاد التي احتلوها بطابعهم الخلقي والفكري والثقافي والاجتماعي. وقد اشتدت سطوة الغرب على الشرق الإسلامي منذ ذلك الحين، ووجد أهل الشرق أنفسهم في مواجهة عنيفة مع فكر وثقافة وممارسة هذه الدول المحتلة الغازية وتحت مسمى تطوير بلاد الشرق وتحديثها وجد أهل الشرق أنفسهم في مواجهة عاتية آتية من الغرب أبرزها مواجهة التيار العلماني، ثم موجة الحداثة والتحديث ثم موجه النظام العالمي الجديد أو ما عرف بالعولمة.

ولا ينكر المنصف المتأمل لحال الشرق الإسلامي – ومنه مصر – الفارق المادي الهائل بين ما وصل إليه الغرب المادي وما كان عليه أهل الشرق الإسلامي من جمود وتخلف مادي أملى على أهل الشرق خيارات لا مفر منها.

وفي هذه الورقة محاولة لتفصيل ذلك، ومن هنا فإنها معنية ببحث مضمون الحداثة الذي يريده الغرب لنا، ثم مضمون الحداثة والتحديث الذي نريده.

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

أولاً: ما مضمون الحداثة والتحديث الذي يريده لنا الغرب ؟

تحت هذا العنوان تعرض هذه الورقة لأبرز موجات التأثير التي جاءتنا من الغرب ترمي إلى نقل الإنسان الشرقي إلى ما عليه الغرب مبرمجين العقلية الشرقية تهيئة للوصول إلى ذلك ولعل أبرز ما جاءنا مؤثراً علينا تمثل في الموجات الثلاث التالية :

١ـ الموجة العلمانية .

٢ـ موجة الحداثة والتحديث .

٣ـ العولمة أو ما عرف بالنظام العالمي الجديد .

أ- موجة الفكر العلماني أو العلمانية:

كان لشيوع منهج البحث الاستنباطي الذي دعا إليه ديكارت ومنهج البحث التجريبي الذي دعا إليه فرنسيس بيكون آثارهما على تكوين فلسفة الحضارة الغربية، فانطلقت أوروبا وراء بيكون تثق بالعلم ولا تؤمن إلا بالتجربة، وكان من أثر ذلك إخراج الأفكار الروحية والغيبية من أية نظرة إلى الحياة حيث الطبيعة هي المصدر الوحيد، وما وراء ذلك فهو محض وهم وخيال[١] .

ومن هنا انطلق رواد المدنية الأوروبية المعاصرة : دارون وماركس وفرويد يكملون هذا الطريق الذي يباعد بين الإنسان وأشواقه الروحية وصلته بخالقه معززين الجانب المادي[٢] فأما دارون فقد ابتكر نظريته في التطور وأصل الأنواع وهي نظرية تتلاءم مع الاتجاه المادي الذي غزا أوروبا، فقد اعتبر الإنسان حيواناً مترقياً من الأميبا، وبهذا يقرب للعقل تفسيراً للوجود والإنسان على أساس عقلي .

وأما " فرويد " فقد انطلق على نفس الدرب ينسج بنسيج " دارون " في الدراسات النفسية وفسر السلوك الإنساني على أساس الغريزة الجنسية، فالجنس هو المحرك الأول والدافع الأصيل للإنسانية ويشمل هذا التفسير الفرد، والجماعة، والأخلاق، والدين، والفن، والفكر .

(1) انظر مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام ص ١٥ .

(2) انظر : مستقبل الحضارة ص ١٦ .

وأما ماركس فقد أكمل الحلقة في العلوم الاجتماعية فرسم حلقة التطور الاجتماعي على أنه لا يحركها سوى الإشباع المادي وأن أدوات الإنتاج هي التي تطورت بالإنسان ومن هنا كان الفكر، والدين، والفن انعكاسات للواقع المادي الذي مر به الإنسان عبر تاريخه الطويل، وكان من نتيجة هذا الاتجاه الذي يبالغ في قيمة الجانب المادي وأثره في الحياة أن تعبأ الجو بتصور مؤداه التفرقة بين ما هو روحي وما هو مادي ، تفرقة تجعل لكل منها مجالاً محدداً لا يتخطاه فاقتصر مجال الكنيسة على الروح وأشواقها وعلاقة الإنسان بالرب، وأما القطاعات الأخرى مما يخص الإنسان والكون فقد خرجت من سلطة الكنيسة وصارت تخضع لسلطة اجتماعية أطلق عليها الدنيوية أو العلمانية وطبقت هذه التفرقة الحادة على مستوى الفرد فهو روح تخضع للكنيسة وجسد يخضع للسلطة الدنيوية وعلى مستوى المجتمع البشري تقع كل أموره ومجالاته في اختصاص سلطة زمنية دنيوية تعرف بالدولة وما وراء ذلك من أشواق الروح والعبادة وعالم الغيب فإنه مقصور على الكنيسة. يظهر ذلك الفصل الحاد من الفكر العلماني الذي يؤصل ويسعى للفصل بين السلطة الزمنية الدنيوية ممثلة في الدولة والسلطة الدينية ممثلة فيما يخص الكنيسة ورجالها[1].

بل إن الفكر العلماني جاوز ذلك فأخذ يتشكك في أصول الدين وطبيعته ومدى صلاحيته لنفوس البشر ويطعن في مصادره ولعلنا نذكر بهذا الصدد تلك الشعارات التي سادت يوماً من قولهم " لا إله والحياة مادة " و" الدين أفيون الشعوب " ، كما أشار الفكر العلماني إلى ممارسات الكنيسة في المجتمع وعدائها لحرية الفكر وتقدم العلم، وتجاوزها لاختصاصاتها المحددة لها، وتدخلها في أعمال السلطة الزمنية الدنيوية، ويخلص الفكر العلماني من ذلك كله إلى ضرورة نبذ الدين وطرحه وراء الظهور وأما تسيير أمور المجتمع من تعليم وتنشئة وآداب وفنون وفكر واقتصاد وسياسات خارجية، وخطط تنظيمية، وأهداف مستقبلية فإنما يسير على أسس من الفكر البشري الوضعي غير المهتدي بقواعد ذلك الدين المطعون فيه، وبهذا يخرج الدين من دائرة الوعي الاجتماعي، والعادات، والتقاليد، والسلوكيات ومضاين الآداب والمذاهب الفكرية والقوانين اللهم إلا ما دخل منها دخولاً لا يؤثر على المستوى المخصص للأمور الدنيوية[2].

(1) انظر ورقة ثقافية في الرد على العلمانيين ص ٢١

(2) انظر ورقة ثقافية ص ٢١، ٢٢.

والعلمانية وهي تسعى إلى فصل الدين ممثلا في سلطة الكنيسة عن الدنيا ممثلة في السلطة الزمنية المعروفة بالدولة تبرر ذلك بالحرص على الدين نفسه من أن يدخل في غير اختصاصه إذا تدخل في ميادين السياسة، والاجتماع، والاقتصاد، والفنون، والآداب كما أنها تبرر هذا الفصل بالحرص على استقلال السلطة الدنيوية بعيداً عن عسف مؤامرات السلطة الدينية وتسمى ذلك ديمقراطية أو وضعاً للأمور في نصابها الصحيح، وترفع شعارات التحرر والتقدم عندما تعمل على إبعاد المؤثرات الدينية على حياة المجتمع، مشيرة إلى خلو المسيحية من شريعة أو تعاليم هادية في تلك الميادين وعندما تطرد الدين من نطاق الفكر الفلسفي والنظري فإنها تطلق ذلك باسم النزعة الإنسانية، وتدلل العلمانية على جمود المسيحية وعجزها بوقوفها في وجه الإبداع العلمي وعندما تخرج الدين من المجالات التعليمية والقانونية كان مبررها في ذلك وهو الحيدة والموضوعية وضمان المساواة بين المؤمنين بذلك الدين والكافرين به داخل نفس المجتمع الأوروبي الواحد وكان ذلك من مبررات نقلها وقد زاد عليها دعاة اللا دينية في الأوساط الإسلامية.

ووجدت أنصاراً لها هنا وهناك، ودخلت إلى الحياة العملية فأزاحت سلطان الدين شيئاً فشيئاً حتى غدا الدين عندهم مهمشاً في كثير من جوانب الحياة، مع أن منطلقات اللا دينية الغربية المعروفة بالعلمانية لا وجود لها في بلاد المسلمين حتى تظهر العلمانية وتؤثر في بلادنا [1].

البيئة التي ظهرت فيها العلمانية أو اللادينية الغربية:

في ظل سلطان الكنيسة وتربعها على عرش الروح وأشواق النفس كانت هناك طروحات وتفسيرات كنسية لظاهر الطبيعة وأمور حياتية، وبتقدم العلم اكتشف كثير من طليعة علماء النهضة الأوروبية خطأ تلك التفسيرات؛ فأخذوا يجهرون بذلك مما عرضهم لصراع طويل، تكبد فيه العلماء كثيراً من المشاق والتضحيات ولعلنا نتذكر في هذا الصدد ما كوفئ به كل من جاليلو وكوبر نيكس، مع أن أثرهما على البشرية لا ينكر، وتمخَّض هذا العراك عن حدة الفصل بين ما هو روحي مجاله الكنيسة وما هو دنيوي مجاله الدولة أو السلطة الزمنية هذا بالإضافة إلى أن المسيحية قد عاشت لها دورها الروحي بجوار السلطة

(1) انظر: ورقة ثقافية ص ٢٢، ٢١.

الزمنية الممثلة في الدولة زمناً طويلا، حتى إذا كان عصر النهضة واستحكم الخلاف بين هاتين السلطتين مما أسفر عن الفصل الحاد بينهما وعزز من هذا الفصل ما كانت تتمتع به الكنيسة من سلطات تبدأ بحق الإدخال في الدين وتصل إلى الإخراج منه وتملك حق تفسير الدين وحق طرد المخالف لعقائدها من زمرة المؤمنين، وقد كانت المغالاة في استعمال هذا الحق مما أجج الصراع بين السلطتين معززاً في النهاية قصر دور الكنيسة على ما هو روحي تعبدي، وأما ما وراء ذلك فإنه مما يخص السلطة الدنيوية الزمنية تسيرها بفكرها البشري بعيداً عن هدي الدين[1].

ولقد كان لاحتكاك الغرب بالشرق الإسلامي آثاره التي حاول فيها الغرب أن يطبع الشرق بطابعه العلماني يوم أن كانت معظم بلاده ترزح تحت نير الاحتلال وتكتوي بنيرانه، إضافة إلى تربية المستعمر أجيالاً من أبناء الشرق على هذا الفكر العلماني الذي ينبذ الدين ويضيّق دوره في الحياة، وسهل لهم مع ذلك عند الاضطرار إلى الرحيل أن تؤول إليهم السلطة ناسجين على منوال معلميهم يضاف إلى ذلك ما تتركه عمليه الابتعاث إلى الغرب من تأصل تأثير هذا الفكر العلماني في أذهان المبعوثين، وأن الغرب ما وصل إلى هذا التقدم المادي إلا بعد أن نبذ الدين وراء الظهر والباب مفتوح لمن أراد أن يلحق بالركب وما عليه إلا أن يصطنع ما صنعه الغرب من جعل ما لقيصر لقيصر وما للرب للرب أي فصل الدين عن مجالات الحياة الدنيا لتكون الأخيرة من سلطة الدولة تسيرها كيف شاءت.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا:

هل نحن حقاً في حاجة إلى العلمانية حتى نحقق ما حققه الغرب من تقدم؟

وبعبارة أخرى: أليس أمامنا إلا أن نسلك ما سلكه الغرب من طرح الدين وراء الظهر وتضيق دوره وقصره على ما هو روحي وأما ما عدا ذلك فإنه خاص بالإنسان يصرفه بعيداً عن هدي الدين؟

أولاً: لقد كان من الظلم محاولة طبع الغرب بلاد الشرق بهذا الطابع الفكري الذي يتناول الفرد والمجتمع على هذا الضرب من القسمة الحادة بين ما هو روحي أي مجال الدين وما هو دنيوي أي مجال الدولة والسلطة الزمنية.

(1) انظر: ورقة ثقافة ص ٢٨، ٢٣.

فالعلمانية حالة من الفصل الحاد بين سلطان الدين وسلطان الدولة نشأت في أوروبا في بيئة لها ظروفها التي دعت إليها على حين أن بلاد الشرق لم تكن في يوم من الأيام على شيء من ظروف هذه البيئة أو ملابساتها.

فليس عندنا صراع بين الدين والدولة، إذا الحاكم في الإسلام مؤتمن على تطبيق شريعة الإسلام تلك الشريعة التي تضمنت جميع جوانب حياة البشر قال تعالى: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) وقال: ﴿... مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ...﴾ (الأنعام: ٣٨) وقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

لقد ظلت شريعة الإسلام يحكم بها من عصر محمد ﷺ إلى أن جاءنا هذا البلاء من الغرب فأقصيت شريعة الإسلام وحل محلها القانون الوضعي كضرب من ضروب تأثير قوي العلمانية الغربية أو اللا دينية الغربية في بلاد المسلمين.

ثانياً: ليس في الإسلام خصومة بين الدين والعلم الدينوي فإننا نجد نصوصاً صريحة من الكتاب والسنة المطهرة تدعو إلى اصطناع العلم وتحض عليه وترفع قيمة العلم وتعلى منزله العلماء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩) وقوله: ﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾ (المجادلة: ١١).

بل إن الله تعالى جعل إعمال العقل في ظواهر هذا الكون عبادة من أجل العبادات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠ـ١٩١).

بل إنك لتعجب أن يكون أول ما نزل من القرآن الكريم حاضاً على القراءة متضمناً أدوات العلم، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ـ٥).

ناهيك عن الأحاديث الكثيرة التي رويت عن رسول الله ﷺ تحض على العلم وتعلى منزلة العلماء وتجعل المسلم في حركة دائمة بحثاً عن العلم فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، بل إن الرسول الكريم ﷺ ـ ليجعل العلم سبباً في امتداد عمل الإنسان بعدما يموت فقد قال ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به) بل إنه ﷺ ليجعل خير الناس أنفعهم للناس وأن من سنن سنة حسنة فله أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة.

ثالثاً : إن المسلمين يوم أن فهموا دينهم حق الفهم ما ظهرت في بيئتهم خصومة بين الدين والعلم وخاصة عندما يكون العلم علم الدنيا، بل إنهم قد برزوا وبرعوا في مجالات علوم الدنيا، كما برزوا وبرعوا في مجالات علوم الدين، وكان العالم في علوم الدنيا عالماً كذلك في علوم الدين

رابعًا : ما خلفه علماء المسلمين في ظل حضارة الإسلام خير شاهد على الوئام بين علوم الدين وعلوم الدنيا فالمسلم يفهم ابتداء أن من بين حكمة وجوده في هذه الحياة أن الله تعالى استخلفه واستعمره في هذه الأرض منذ الخليقة الأولى قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً. . .﴾ (البقرة: ٣٠) ومن أجل ذلك عندما قامت دولة الإسلام أخذ المسلمون يجوبون أرجاء المعمورة مستفيدين من علوم من سبقهم فترجموا وهضموا هذه العلوم ثم أكملوا وأبدعوا حتى نشأت على أيديهم علوم كونية لم تكن فيمن كان قبلهم وفي هذا الصدد يصادفك سيل من أسماء الأعلام كابن النفيس، وابن سينا، والرازي وغيرهم.

خامسًا : إن تنقية تأثير هذه الهمجية العلمانية إنما يكون بتجديد فهم الناس للدين ولحقيقة وجودهم وهدفهم في هذا الوجود وهو ما سأفسح له القول في نهاية هذا البحث.

ب- الموجة الثانية: الحداثة:

حاول الدكتور عبد الرحمن محمد القعود في كتابه " الإبهام في شعر الحداثة " .

أن يرصد أهم آثار الحداثة على الشعر العربي الحديث، فقرر أن الإبهام والغموض هما ما طبعت به الحداثة الغربية الشعر العربي الحديث.

وفي الفصل الذي عقده الدكتور القعود بعنوان " الثقافة والمذاهب الأدبية الغربية وتأثر الحداثة الشعرية العربية بها نجده يسوق تعريفات وخصائص للحداثة الشعرية العربية يمكن أن تضيء لنا الطريق إلى بيان البنية الفكرية والخصائص التي حركت موجة الحداثة وأنتجتها . وإذا اخترت أن أشير إلى شيء من ذلك فإني أشير إلى أن النمو المادي المتسارع في عصر النهضة وما تلاه حتى يومنا هذا قد ألقى بظلاله على الحياة بصفة عامة فطبعها بسمة السرعة والتغير ، فطال ذلك ثوابت وقيماً عمل على هدمها وتغيرها على ما يتضح مما ساقه الدكتور القحود في محاولة تعريف الحداثة وبيان خصائصها[١] .

يشير الدكتور القعود إلى أن جيمس ماكفارلن في سياق حديثه عن ظروف نشأة الحداثة قد ذكر أن الريح قد عصفت بكثير من مبادئ القرن التاسع عشر الفلسفية بعد مرورها بمراحل التشكيك والتفحص ، وأن المثقفين نظروا وبإكبار وإجلال إلى الفلسفة الوضعية والنفعية في الأدب ، وأن المفكرين أخذوا يركزون على تهشيم "الأنظمة" "والأنماط" "والمطلقات" وتهشيم الإيمان بالقوانين العامة التي تحكم الحياة والسلوك فلم تظهر الحداثة الغربية بمحض الصدفة ، وإنما مهد لها حدوث تغيرات عميقة أو انقلابات في الحياة الغربية في جوانبها الاجتماعية ، والفكرية ، والعلمية ، وكانت تتغذى على هذه التحولات الكبرى في حياة المجتمع مما أدى إلى تغير إيقاع الحياة وطبعها بالسرعة الدائمة ، كأنما الحياة صدى لسرعة الآلة .

وعلى هذا فقد أبدى الدكتور القعود صعوبة تحديد المقصود بالحداثة بسبب ما في طبيعتها من تناقض وغموض إلا أن عدها انفجارا للوعي في أعقاب انفجار معرفي هو من التعريفات أو المفاهيم التي تقربها دون أن تحددها[٢] وهي أن الحداثة نوع من التحطيم الزاقي الخلاف على ما يرى المكسيكي أكتافيوباث .

ووصفها كمال أبو ديب بأنها ظاهرة الالتباس أي ظاهرة التضاد الداخلي ، والحداثة بالنظر إلى تقاليدها فيما يرى "انطون كامبانيون" هي عبادة للغريب أو الغامض ، ونظراً لصعوبة الإمساك بمعنى محدد للحداثة فقد لجأ الدكتور القعود إلى العرض لخصائصها رغبة في استكشاف مفهومها [٣] .

(1) انظر الإبهام في شعر الحداثة صـ٧٣ وما بعدها .
(2) انظر الإبهام في شعر الحداثة ص ٧٥ .
(3) الإبهام في شعر الحداثة ص ٧٦ وما بعدها .

أول هذه الخصائص وأبرزها هو تناقضها وغموضها إلى درجة دفعت أحد الذين كتبوا عنها إلى القول بأنها كتاب يصيب تقليب صفحاته بالصداع والسوداوية، وعلى هذا تجد في ذهن الحداثي خلطاً بين المتناقضات يتمثل في المزج بين العقل واللا عقل، والعقل والعاطفة والذاتية والموضوعية، وهو خلط ينسف أنظمة الفكر، ويقلب قواعد اللغة، كما ينسف العلاقات بين الكلمات والأشياء، ويفتح أبواب التعبير غير المترابط وغير المنطقي على ما يري " برارادى " " وماكفارلن " في أدب الكتاب المحدثين.

ومن الدراسين الذين قلبوا صفحات كتاب الحداثة " مارشال بيرمان " ويصادفك قوله " أن تكون حداثياً يعني أن تعيش حياة مفعمة بالمفارقات والمتناقضات " وهو بذلك يؤكد ما ذهب إليه برارادي وماكفارلن من اتسام الحداثة بسمة التناقض.

ومن سمات الحداثة كذلك أنها " حداثة اللحظة "[1] إذا صح التعبير يقول " يودلير " وهو الحداثي الأول في وصف بعضهم : " أعني بالحداثة ما هو عابر سريع الزوال " فالحديث والموضة عنده ليس سوى لحظة " اللحظة التي لا تستقر ولا تدوم.

واللحظة إذا دخلت في مفهوم الحداثة عزلتها عن الماضي والمستقبل ومعنى ذلك أن كل شيء داخل الحداثة إنما هو في حركة دائبة وغير قادر على التشكل بسبب هذه العجلة المتسارعة " اللحظة "، وهذا يعني أنها تنزع إلى رفض النموذج القار والثابت والمطلق، وترفض في الوقت ذاته أن تكون بديلاً عن كل ذلك وإلا وقعت في تناقض مع مفهوم اللحظة بما فيه من تجدد متسارع ورفض للأبدي والمستقر.

حداثة اللحظة على هذا هي حداثة التناسل المتسارع في المفهوم الغالب، ستظل الحداثة تتناسل، وستظل تنسل ما يشبهها وما يخالفها وما يصطدم معها، وإذا توقفت الحداثة عن التناسل أو توقفت عن إنسال النقيض متكيفة بالشبيه فقد فقدت أبرز أهم صفاتها وهو التناقض. والحداثة لا تتخذ مما تنسله نموذجاً، فالحداثة نفي للنماذج ولا تطمح إلى مثال وهي في هذا السياق عالم يصدق عليه قول كارل ماركس في بيانه الشيوعي : " كل ما هو صلب فيه، يتبدد ويغدو أثيراً " لأنها ترفض المعايير وبخاصة ديمومتها، وترفض التشكل في نموذج أو قالب، لأن هذا يحولها إلى بنية أو عادة مستقرة أو تقليد وتقنين، إنها هدم مستمر ورفض مستمر وتجاوز مستمر حتى لنفسها[2].

(1) انظر الإبهام في شق الحداثة ص ٨١ وما بعدها.
(2) انظر الإبهام في شعر الحداثة ص ٨٢، ٨٣.

ونظرا لأن الصيرورة أو التحول الدائم مفهوم رئيسي من مفاهيم الحداثة بلغت فيه حد الهوس كانت الحداثة في نظر " هابرماس " مشروعاً لم يكتمل وكانت الحداثة عند بعضهم " ليست نفسها أبداً، إنها دائما الآخر المتغير، ولا يتصف الحديث فيها بالحيرة فحسب، وإنما بالغيرية كذلك.

ومن منطلق فكرة الصيرورة والتحول لم تكتف الحداثة بقوله " تجاوز الماضي إنما ذهبت بعض اتجاهاتها المتطرفة إلى القول بأن الماضي خانق " ولابد من أن يقذف به من فوق باخرة الحداثة[1].

وإذا ما جئت إلى ما بعد الحداثة والذي يؤرخ له بحدوث الثورة التقنية فإنه في بعض جوانبه امتداد للبرنامج الحداثي في بعض جوانبه الأخرى رد فعل له على ما يرى "روبرت أتلر" ، "وجير الداغراف "[2].

ذلك شيء مما طرحه الدكتور القعود عن فكرة الحداثة وخصائصها وقد ألقى بلا شك بظلاله على المجتمع الغربي وعلى أجياله التي تربت على قيم الحداثة وخصائصها هذه، فأحدثت من التشويه والهدم والتغيير والتحويل لما كان ثابتاً مستقراً ما أحدثت بالإضافة إلى فكرة التناقص التي تضمنتها فكرة الحداثة مما انعكس بدوره على الحياة ودوريها، فتمثل طوفان الحداثة في كل جديد يحمل المتناقضات فصرت ترى في مجتمعات الغرب حداثات على سبيل المثال لا الحصر، منها حداثة مصادمة الفطرة البشرية ممثلة في حماية الشواذ بسن القوانين لهم، وحداثة الحرية الجنسية التي أفضت إلى فوضى الجنس وشيوع اللواط والزنا والسحاق، وصرت ترى حداثة إشاعة الفاحشة وإثارة الشهوات، وفتح الأبواب المحرمة وتجارة الجنس الناعم، وتحليل ذلك وإباحته بالقوانين التي تحميه وإنك لتعجب حين تعلم أن ألمانيا قد استقدمت أكثر من أربعين ألف امرأة عاهرة من الخارج يمارسن الزنا والدعارة في فترة استضافتها لدورة المباريات الأولمبية خلال أسابيع من هذا العام ٢٠٠٦م.

صرت ترى حداثة الإعلانات في القنوات الأوروبية المتخصصة وبما يصاحب ذلك من استعمال المرأة أداة رخيصة مروجة للمنتج المعلن عنه بصورة تنزل المرأة إلى أحط دركات

(1) انظر الإبهام في شعر الحداثة ص ٨٣، ٨٤.
(2) انظر الإبهام في شعر الحداثة ص ٨٦، ٨٧.

obeikandl.com

المهانة لهذا المخلوق الذي كرمه الله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٠) وبنو آدم هم الرجال والنساء .

صرت ترى حداثة الغناء الداعر بما يصاحبه من خلفيات نسائية فاجرة خليعة في مظاهر وحركات تدعو إلى الغواية والسقوط ، ربما لا تستطيع كثير من بنات حواء الإتيان بها في حجرة النوم لزوجها الذي أحله الله لها .

صرت ترى حداثة ثقافية جنسية وفن ممارسة الشذوذ الجنسي علناً وقد تخصصت في ذلك قنوات انحطت ببشرية الرجل والمرأة إلى درجات من الانحطاط تأباها وترفضها كثير من الحيوانات .

صرت ترى حداثة تقديم كل من يذكر الحقائق التي تكشف عن الدور الذي يلعبه اليهود في إفساد العالم ، وتقديمه إلى المحاكمة الجائرة كما فعل مع جارودي[1] .

صرت ترى حداثة صياغة القوانين الجائرة وتمريرها للتصدي لمن تسول له نفسه بأن يقول الحقيقة في حق اليهود كما فعلت فرنسا في قانون " جيسو "[2] .

صرت ترى حداثة مصادرة حرية المواطن على أرض أوروبا في ممارسة أبسط شعائر دينه كما فعلت فرنسا ـ أم الحريات ـ في مسألة الحجاب ومنع المسلمات منه هناك .

صرت ترى حداثة استباحة حقوق الشعوب والسيطرة عليها واحتلالها بالقوة لنهب ولتدعيم بقاء الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين المسلمة ـ رجوعاً بالبشرية إلى شريعة الغاب كما فعلت أمريكا ودول التحالف في احتلالها لأفغانستان والعراق ، وفيما تحاوله اليوم مع بقية دول الشرق الإسلامي .

صرت ترى حداثة توحيد العالم كله وتعبيده لصالح فئة قليلة منه ، وفي سبيل هذه الحداثة تستخدم المنظمات الدولية كصندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ، ومنظمة التجارة العالمية ، ومجلس الأمن الدولي ، واستغلال سقوط الاتحاد السوفيتي ، وانتهاج

(1) محاكمة جارودي ص ١٢ ، ١٥ .
(2) محاكمة جارودي ص ١٢ ، وما بعدها .

سياسة التجويع، والمقاطعة، والحظر لمن يخرج على النظام الذي تريده أمريكا على ما يتضح في الموجة الثالثة : العولمة أو ما عرف بالنظام الدولي الجديد.

صرت ترى حداثة اغتيال الديمقراطية إذا جاءت بما لا ترضى عنه أوروبا وأمريكا، كما فعلت فرنسا عندما بشرت الانتخابات بفوز الإسلاميين فأعلنت أنها ستحارب الجزائر إن آل الأمر إليهم، وما نتائج الانتخابات وفوز حركة حماس فيها بالحكومة منكم ببعيد فكانت مكافأتها أن تتصدى أمريكا ودول الغرب لهذه الحكومة الوليدة بالطريق الديمقراطي، فقطعوا عنها المعونات وحاصروها وحاصروا الشعب الذي انتخبها وهم الآن يتعقبون كل من يمد يد العون لهذه الحكومة.

صرت ترى حداثة . . . . وحداثة . . . وحداثة إلى آخر ما يحمله كل ذلك من تناقض وتطاول على ثوابت الإنسانية التي بات يتهددها هوس وجنون هذا التناقض الحداثي الغربي.

هذه هي الحداثة على المفهوم الغربي وهذه بعض تطبيقاتها في دنيا الناس فهل نحن في حاجة إلى هذا الشق منها؟ وهل هي بهذا المعنى وبهذه الخصائص تتمشى مع مواريثنا الدينية، والفكرية، والخلقية، والاجتماعية، والثقافية التي لم تنفصم يوماً عن الاستمداد من الثوابت التي تحمي البشرية كلها ولو لم يكونوا جميعاً على دين واحد، تحميها غوائل التناقض والتردي في أسفل دركات الانحطاط، بعد تكريم الله لها في أصل الخلقة.

إن الحداثة في أصلها العام لها شقان، أحدهما مادي يتصل بعمارة الكون وما فيه فيأخذ بالعلم والدراسة ومظاهر الكون ودقائقه لمحاولة إدراك ما أودع الله هذا الكون من قوانين وسنن ولتسخير ذلك كله في خير البشرية، وهذا جانب أُمرنا بالأخذ به في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولنا في سلف هذه الأمة الأسوة والقدوة فعلى أيديهم تمت منجزات أفادت البشرية كلها وعلى أساسها قامت نهضة أوروبا العلمية في العصر الحديث.

أما الجانب الآخر من الحداثة وهو ما يتصل بالجانب الإنساني وفيما سبق بيان الفكر الذي يقوم عليه ويحركه وما تزيت به الحداثة الغربية من زي وخصائص فإن الله قد أغنانا عنها وعن عواقبها فيما ضمنه الإسلام من تحصين الفرد والمجتمع بالتربية على قيم ثابتة أساسها الإيمان بالله وبرسله وبكتبه وبالقضاء خيره وشره وباليوم الآخر الذي سيعيد الله فيه

الخلائق كلها ليفصل بينهم فيما قدمت أيديهم في محكمة قاضيها وهو الله رب العالمين وميزانها العدل لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقع الحساب عليها بمثقال الذرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (سورة الزلزلة : ٧ـ٨) .

لسنا في حاجة إلى تحطيم ثوابتنا ولا إلى تهشيم مطلقاتنا إذ لا يقوم لنا وجود صحيح إلا بوجودها ومراعاتها ولذلك كان تفسير الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي لما تتسم به الحداثة الغربية من سرعة وتنكر للماضي بأنه مناسب لما كان يتصف به هذا الماضي من أوضاع تجعلهم ينفرون منه وينكرون أما نحن فلا نقول ذلك . " الحقيقة أن الغربيين معذورون حين ينكرون ماضيهم ويشنون الغارة على قديمهم، وينفرون من كل دعوة تتضمن الرجعة إلي ذلك أن الماضي الذي سبق حاضرهم وتقدم نهضتهم ـ ماض ـ عفن خرب، ليس فيه إلا المناوأة للعلم، والحجر على الفكر وتحريق العلماء والمفكرين، ليس فيه عدالة ولا تكافل، ليس في للإنسان حقوق ترعى، ولا أخوة يعترف بها، وليس فيه إلا طبقة صارخة، وارستقراطية مستكبرة وإقطاع متسلط، وحكم ظالم، وكنيسة تبارك كل هذا الظلم والظلام وتؤيده باسم الله والمسيح .

" فمن دعا إلى تحكيم الدين عندهم في شئون الحياة، فمعناه أنه يعود بالناس إلى الوراء، إلى الجهل، إلى التخلف، إلى التعصب المغلق، إلى التقليد الأعمى، إلى الإقطاع، إلى الطبقية، إلى حكم الفرد المطلق، إلى تسليم الزمام لرجال الكهنوت، إلى محاكم التفتيش والوقف في وجه العلم والفكر والحرية .

" أما نحن فالأمر عندنا على عكس ذلك تماما، إن ديننا غير دينهم ومجتمعنا غير مجتمعهم وماضينا غير ماضيهم، ﴿ . . . وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . . . ﴾ (الأنعام : ١٦٤)[1] .

ج- العولمة أو ما يعرف بالنظام العالمي الجديد:

بعد قراءة طويلة في العولمة وحولها، يصعب على المرء أن يجد تعريفا محدداً لها، ذلك أنها ذات جوانب متعددة، جوانب اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وإعلامية، يصعب الإلمام بها في تعريف واحد، ومع ذلك فسأطرح شيئاً مما صادفني من تعريفها ليؤخذ التعريف من جماع المقصود بهذا المصطلح .

(1) بيان الحل الإسلامي ص ١٣١ ، ١٣٢ .

يعرفها إدريس هاني في بحثه " العولمة وما بعدها " بأنها " نزعه للسيطرة لها أنماط مختلفة تتحدد بمستوى التطور الذي تشهده العصور في صيرورتها ومراحلها المتعاقبة " ويزيد ذلك التعريف وضوحاً بأن هذه السيطرة قوية وسريعة وشاملة حتى إنه ليصح أن يقال إننا نعيش عصراً موسوماً بشمولية القوة أو السلطة، وهي سلطة لها مظاهر مختلفة، متوحشة وناعمة في آن واحد وهى سلطة ذات اقتصاد ليبرإلى موجه تزداد به شمولية السلطة وشمولية الرقابة بل والرقابة على الرقابة " ولذلك صح تعريف العولمة بهذا الاعتبار على أنها جنون الرقابة الذي يهدف إلى وضع اليد على ما تبقى من الكائن خارج حدود السيطرة، لإعادة تأهيله ودمجه في نظام الرقابة، ليصبح ذلك الكائن مسلعاً ككل شيء داخل نظام العولمة "[١].

وفي مقال " ما بعد العولمة " نجد أ. د. عمر اكتوف : يعد العولمة الثورة التي أعقبت الثورة الاقتصادية الكبرى والتي أعقبت ثورتين كبيرتين في العصر الحديث هي الثورة الصناعية والثورة التقنية[٢].

ويؤخذ من كلام " جون غراي " في بحثه " نهاية العولمة " بأنها مشروع يوتوبي آخر وأوسع، يقوم على السوق الحرة، بعد سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان انهياره إيذانا بسقوط أسوأ التجارة في التاريخ، ثم إنه على العالم أن يأخذ صورة وشكل الحداثة الغربية التي شرعت بأيديولوجيا السوق الخالية من أي واقعية إنسانية[٣].

ويؤخذ من كلام " إدواردو غاليونا " بأن العولمة ليست ظاهرة جديدة، بل إنها نزوع أتانا من بعيد، غير أنه قد تسارع إيقاعه في السنوات الأخيرة نتيجة التقدم الهائل الذي عرفته وسائل الاتصال والتواصل وكذلك للتطور المماثل الذي شهده تركيز رأس المال على المستوى الدولي والعالمي، وهي على هذا ظاهرة تعمل على الحدود من أجل حرية تنقل رأس المال والبضائع، وهي تخالف ظاهرة " العالمية " التي تعني حرية تنقل الأشخاص في العالم[٤].

(1) العولمة وما بعدها ص ٦٢، ٦٣.
(2) انظر ما بعد العولمة ص ١٠٥.
(3) انظر نهاية العولمة ص ٩١.
(4) انظر عن العولمة ص ٩٥.

ويفهم من حوار مع البروفيسور عمر أكتوف بعنوان " ما بعد العولمة " بأنها نظام يشكل فيه صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية ـ نوعاً من حكومة عالمية تسعى إلى " تنظيم العالم " وفقاً لمصالح القوى المالية والشركاء المتعددة الجنسية وقد اكتسحت جميع مناطق العالم وأزاحت المجتمع والدولة " إلى الهامش وقدمتهم بوصفهم أعباء مالية ووضعت تحت الشركات كل ما أرادت استغلاله حتى المصلحة العامة والمشتركة مثل الماء والصحة والتعليم [١] .

ولما كانت الولايات المتحدة من أبرز الدول التي سعت إلى إجبار العالم على نظام العولمة عرفها بعضهم بأنها ظاهرة مؤامرة خاضعة لنمط من الرقابة الصارمة لدرجة أنه يصح أن يقال إنك لن تكون إنساناً عولمياً حتى تأخذ بالطريقة الأمريكية في الحياة الـ **American way of lile** وهذا ليس له إلا تفسير واحد : أن العولمة هي فقرٌ، في الاختيار وأمركة للفروق وديكتاتورية أخطائها تؤدي إلى إما نهاية التاريخ وإما عنف الحضارات وأيا ما كان الأمر فسوقها واحد، إنه عصر التوحد وهذا لم تشهده المجتمعات الغربية قبل ذلك [٢] .

منطلقات الفكر العولمي:

لا يخفي أن شيوع النزعة الداروينية يمثل المحرك الأساسي للبنية الذهنية للتحولات الاقتصادية في العصر الحديث مع شيء من التعديل في نظام العولمة، إذ صارت العولمة نظاماً قادراً بل مصمماً على صناعة الضعفاء وصناعة الفقر والبؤس، ويعمل على زيادتهم بل وعلى استعبادهم، فبهم تزدان الحركة الصناعية، فهم اليد العاملة وهم المستهلك فلو أصبحنا كلنا أرباب عمل، فمن سيكون المنتج ومن سيكون المستهلك ؟ ولما كان البقاء للأقوى في النزعة الداروينية، كان البقاء لقوة رأس المال وسلطانه[٣] .

ولقد كان لآراء " توماس هوبس " الزاعمة بأن الإنسان ذئب للإنسان وأن الكل في حال حرب ضد الكل ـ آثارها على مجموعة من مخططي السياسة الخارجية في واشنطن، فطبقت هذه الآراء على العلاقات الدولية رغبة في أن يكون القرن الواحد والعشرون هو

(1) انظر ما بعد العولمة ص ١٠٨ وانظر كذلك : فخ العولمة ص ٤٦ .
(2) انظر العولمة وما بعدها ص ٧٢، ٧٣ .
(3) انظر العولمة وما بعدها ص ٦٦، ٦٧ .

قرن الهيمنة أو الإمبراطورية الأمريكية، وبناء على آراء هوبس هذا فإنه لا شيء يحمل الدول على الاجتماع والتعاون، وعلى دول العالم أجمع الخضوع صراحة أو ضمناً لإدارة سلطة مركزية. وبدعوى أن الحضارات في حالة صراع دائم فلابد من هيمنة حضارة واحدة هي الحضارة الأمريكية على العالم أجمع بدعوى أن تبلور هذه الحضارات قد أمسى يعلن نهاية التاريخ وتوقفه عن التطور نحو حضارة أرقى[١].

ولعل كلام توماس هوبس بأن الإنسان ذئب الإنسان يذكرنا بقول " سكوت مك نيلي " إن المسالة ستكون في المستقبل " إما أن تأكل أو تؤكل "[٢] **to houa lunck or to be lunck**.

لعله قد وضح من ذلك أن المحرك لنظام العولمة فكر أقرب إلى قانون الغاب منه إلى قانون بشري في القرنيين العشرين والواحد والعشرين.

أكاذيب ومخادعات ضلل بها مروجو العولمة النظام الجديد:

أول هذه المخادعات التي يروج بها مروجو العولمة أن هذه العولمة ذات الاتجاه الليبرإلى المغرق في التطرف من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية الشبيهة بالأحداث الطبيعية التي لا يمكن الوقوف في وجهها، والحق عكس ذلك، فما العولمة إلا نتيجة حتمية خلقتها سياسات معينة بوعي وإرادة الحكومات والبرلمان التي وقعت على القوانين التي طبقت السياسات الليبرالية الجديدة وألغت الحدود والحواجز أمام حركات تنقل السلع ورؤوس الأموال وسحبت المكاسب التي حققها العمال والطبقة الوسطي وانتهاء بالتوقيع على اتفاقية منظمة التجارة العالمية " الجات " التي ستتولى توقيع العقوبات على من لا يذعن لسياسة حرية التجارة[٣].

كما أن العولمة أزاحت البعد الإنساني في هذا النظام الجديد، فاعتبرت المشاكل الاجتماعية والإنسانية من معوقات السوق وأن ما ينفق عليها من مصاريف لا مبرر لها لأنها غير ذات مردود نافع لصالح صاحب رأس المال[٤].

---

(1) انظر فخ العولمة.
(2) انظر فخ العولمة ص ٣٩.
(3)انظر فخ العولمة ص ١٠ والعولمة وما بعدها ص ٦١.
(4) انظر ما بعد العولمة ص ١٠٥.

ومن هذه المخادعات أن العولمة قد أدت إلى انصهار مختلف الاقتصاديات القروية والوطنية والإقليمية في اقتصاد عالمي موحد، بعد أن صار العالم سوقاً واحدة، وأن التجارة العالمية تبدو وكأنها في نمو مطرد ويستفيد منه الجميع بعد أن " غدا العالم كله قرية كونية متشابهة " ينمو ويتلاحم بجميع أجزائه وخاصة بعد الدور الذي لعبته الأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت ومختلف أشكال ثورة الاتصال.

والحق بخلاف ذلك، فما عدا التوحيد التليفزيوني " الذي يربط مثلا من يعيشون في أسيا وإفريقيا وكاليفورنيا وبخلاف بضع مدن تتركز فيها وسائل الصناعة الحديثة والتقنيات العالمية، ما عدا ذلك فإن الجزء الأكبر من العالم يتحول إلى جزر منفصلة وإلى عالم بؤس وفاقة ويكتظ بالمدن القذرة والفقيرة وخاصة بعد أن قطعت مساعدات التنمية التي كانت تعطي للدول النامية، فقد توقفت هذه المساعدات عقب انتهاء الحرب الباردة [١].

ومن هذه المخادعات أن المبشرين بالعولمة والمروجين لها يدعون أن التجارة العالمية والسوق الحرة الموحدة ستؤدي إلى رخاء يعم الجميع، وذلك محض خدعة ماكرة، إذ إن السوق قائمة على التنافس لا التبادل فالبقاء فيها للأقوى والأقدر على المنافسة لقد أظهر ترك السوق مفتوحة في الدول النامية أمام منتجات الدول الصناعية ـ آثاره ـ المدمرة على الجهود التنموية في غالبية دول العالم الثالث، التي وقعت تحت ضغط صندوق النقد الدولي والإدارة الأمريكية المتزعمة للسياسة الليبرالية الجديدة ومعها حكومات دول الاتحاد الأوروبي، مما أدى إلى انهيار كثير منها أو عدم تبعية هذه الاقتصاديات للسوق الحرة، فأدى ذلك إلى زيادة نسبة البطالة من ناحية وعمل على طحن الناس طحناً، ودمر التماسك الاجتماعي، وعمل على تعميق التفاوت في توزيع الدخل والثروة من ناحية ثانية [٢].

هذا وقد نبه المتتبعون لآثار العولمة ومساوئها المدمرة من أمثال " هاتر بيتر مارتين " و " هارالدشومان " إلى أن الديمقراطية التي ينادي بها المعولمون، إنما هي ديمقراطية تدافع عن مصالح الأثرياء، والمتفوقين اقتصادياً وتضر بالعمال والطبقة الوسطى، ويؤكد صحة ذلك ما نراه في الدعوة المستمرة إلى التخفيض المستمر للأجور وزيادة ساعات العمل وخفض المساعدات والمنح الحكومية بحجة تهيئة الشعوب لمواجهة سوق المنافسة الدولية [٣].

---

(1) فخ العولمة ص ١١، ١٠.

(2) انظر فخ العولمة ص ٢٤، ١٤، ٢٨ وانظر نهاية العولمة ص ٩٢.

(3) فخ العولمة ص ١٤، ١٥) وانظر العولمة وما بعدها ص ٦٧، وما بعد العولمة ص ١٠٧، ١٠٨.

ومن تلك المخادعات كذلك دعوى أن نظام العولمة والسوق الحرة سيجلب الرخاء للعالم وأن نجاة الإنسان تكمن في طلب الغنى اللا متناهي، وحقيقة الأمر غير ذلك فهو نظام يعمل على تكريس المال والسلطة في أيدي فئة قليلة تستعبد الأكثرية المطلقة فإن الدراسات تبين أنه في ظل هذا النظام سيكون ٢٠ ٪ من السكان هم الذين يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد، أما النسبة الباقية ٨٠٪ فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة الذين لا يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير[١].

إن نمو العولمة ونظامها يزيد من تركيز الثروة في يد حفنة قليلة، وبذلك تتسع الفروق بين البشر اتساعاً لا مثيل له، فيشير مؤلفا كتاب " فخ العولمة " إلى أن " ٣٥٨ مليارديرا في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة أي ما يزيد قليلا على نصف سكان العالم وأن هناك ٢٠ ٪ من دول العالم تستحوذ على ٨٥٪ من إجمالي الناتج العالمي، وعلى ٨٤٪ من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها ٨٥٪ من مجموعة المدخرات العالمية، وهذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوت آخر داخل كل دولة حيث تتأثر قلة من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني والثروة القومية في حين يعيش أغلبية السكان على هامش الحياة[٢].

وحتى يتقبل الناس هذا الوضع راح مروجو العولمة يروجون لأفكار ومقولات وسياسات تؤكد ديكتاتورية السوق وقسوة العولمة وهي مقولات ذات طابع غير ديمقراطي وشمولي وغير مبررة علمياً كالقول مثلاً " إن مراعاة البعد الاجتماعي واحتياجات الفقراء أصبح عبئاً لا يطاق " وإن دول الرفاه تهدد المستقبل، وإنها كانت مجرد تنازل من جانب رأس المال إبان الحرب الباردة وإن ذلك التنازل لم يعد له ما يبرره بعد انتهاء هذه الحرب " أو القول على كل فرد أن يتحمل قدراً من التضحية حتى يمكن كسب المعرفة في حلبة المنافسة الدولية " أو القول : " بأن شيئاً من اللا مساواة بات أمراً لا مناص منه " وقد وجدت هذه الأفكار انعكاساتها الواضحة في السياسات الاقتصادية الليبرالية التي تطبق الآن في مختلف الدول من دون مشاركة الناس، أو موافقتهم على تلك السياسات[٣].

(1) انظر فخ العولمة ص ٩، ٣٥، ٣٩ وما بعد العولمة ص ١٠٧، ١٠٥.
(2) فخ العولمة ص ١١ وانظر : ما بعد العولمة ص ١٠٦.
(3) فخ العولمة ص ٩.

ومن مساوئ العولمة والنظام العالمي الجديد أنه يكرس السلطة في يد رأس المال بحريته في التنقل بلا حدود، ويضعف سلطان الدولة، ويحجم دورها ويحولها إلى حارس لصالح رأس المال، ومن هنا عمل النظام العولمي على إضعاف سلطة الدولة بتقليص نفقاتها وإجبارها على تنفيذ سياسة مالية تضر بصالح أهلها مدعياً أن ذلك إنما هو خطوات على طريق الإصلاح، وهو في حقيقته مؤامرة ترمي إلى استعباد النوع البشري وإخضاعه لسلطة رأس المال[١].

ومن مساوئها كذلك أن الإنسان يتحول إلى كائن مسلع شأنه شأن كل الأشياء في عالم العولمة، كما يخضع وجوده إلى قرار السوق بموجب العرض والطلب، فإنسان العولمة على هذا كائن مجبور ومسير وموجه ليس من قبل خالقه بل من قبل إدارة السوق الحرة التي تمتلكها الليبرالية الجديدة[٢].

ومن مساوئ العولمة كذلك أنها تعمل على النفي المستمر للآخر فهي تعمل على تنميط العالم وطمس هويته الثقافية وتذويبها، وذلك ضرب من المسخ يصادم الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإن من أفضل ما في هذا العالم ما فيه من عوالم ذات تعدد ثقافي، وهو إرث إنساني يعبر عن نفسه من خلال مظاهر متعددة ولما كان الأمريكان هم الآخذين على عاتقهم تزعم هذا النظام العالمي وجر العالم كله إليه، كان دأبهم يقوم على " أمركة " كل شيء حتى صح قول القائل : " إنك لن تكون إنساناً عولمياً نموذجياً حتى تكون مصابا بفقدان الذوق وعمي الألوان لتعيش على النظام الأمريكي للحياة على : **American way of lile**[٣].

ولقد استثمر زعماء الليبرالية الجديدة بزعامة أمريكا وسائل الأعلام لترويج فكرة العولمة وفرض رؤية وحيدة للعالم مستخدمة في ذلك قدراً من التضليل وتلفيق الخبر[٤].

ومروجو العولمة على وعي بما يمكن أن يؤدي إليه تحديث العالم على هذه الصورة من ارتفاع معدل الجريمة والتفاوت الحاد بين المستويات الاجتماعية، ويقبلون ذلك كله على أنه

(1) انظر العولمة وما بعدها ص ٦٨ .
(2) انظر : العولمة وما بعدها ص ٦٣، ٦٥ .
(3) العولمة وما بعدها ص ٧٢ وانظر : عن العولمة ص ٩٦ .
(4) عن العولمة ص ٦٧ .

ثمن وضريبة التقدم، بل الحديث عن العدالة الاجتماعية وحرية المواطن يعد من قبيل الأساطير التي تحقق شيء منها أيام الحرب الباردة، فكان ذلك خدعة يخفى عن الجماهير حقيقة ما يرمي إليه النظام الليبرالي [١].

ولقد أثرت العولمة تأثيراً مباشراً لا ينكر أدى إلى ارتفاع معدل البطالة ارتفاعاً جنونياً يعصف بالملايين وأسرهم، وأدى إلى خفض أجور العمالة مع زيادة ساعات العمل في اليوم، خدمة لأصحاب رؤوس الأموال، إلى الحد الذي وصف به بعضهم ذلك بأن العولمة " مذبحة العمالة " [٢].

ولقد أدرك المجتمع الغربي ما يمكن أن يؤدي إليه هذا النظام الطاغي المعولم فقاموا بحركات احتجاجية في أمريكا وأوروبا لإيقاف هذا التحويل المتسارع للعالم للدفاع عن أنفسهم ـ هم ـ من غول العولمة ونظامها الجديد الذي يكاد يحطم كل شيء ويخفي ما يظهره من استبداد وقمع غير محدود ووحشية تكاد تلتهم كل شيء[٣].

ولقد ضاعف من مساوئ العولمة ما تنتهجه منظمة التجارة العالمية(wto) في دعم وتعزيز السياسات الحمائية التي تنتهجها دول الشمال من خلال اتفاقية حقوق الملكية الفكرية وما تنطوي عليه هذه الاتفاقية من ترسيخ للتخلف وتعزيز لانتشار الفقر والأمراض، ومن المعروف أن ملكية ما لا يقل عن ٩٠٪ من حقوق براءات الاختراع تعود أصلا إلى بلدان الشمال وبفضل هذه الاتفاقية أمست بلدان الشمال ومعها منظمة التجارة العالمية تفرض غرامات مالية باهظة على كل من تسول له نفسه الانتفاع من مكتشفات ومبتكرات العصر، ولعل الأدوية الخاصة بعلاج مرض الإيدز (نقص المناعة) مثل صارخ على ذلك مما يتيح لهذه الدول حق الاحتكار وما يترتب عليه من آثار مدمرة[٤].

ومما يدل على استغلال الدول الصناعية الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد ومخادعتهم للدول النامية أنها مع تحقيق قدر كبير من فتح السوق العالمية بالدول النامية أمام منتجات الدول الصناعية فإن الدول الصناعية مازالت توصد أبوابها أمام السلع الزراعية

(1) انظر : نهاية العولمة ص ٩٣، العولمة وما بعدها ص ٦٩، ٧٠.
(2) فخ العولمة ص ١٣، ١٤.
(3) انظر العولمة وما بعدها ص ٧٣، ٧٤ وفخ العولمة ص ٣٠
(4) فخ العولمة ص ٢٧، ٢٨

والسلع النسيجية القادمة من الدول النامية، وذلك إما من خلال فرض حصص جائرة أو فرص ورسوم جمركية عالية على صادرات الدول النامية مما يضعف من قدرتها على المنافسة، وفي ضوء ذلك يبدو الحديث عن تحرير التجارة الخارجية ضرباً من المخادعة والزيف الواضح[١].

هذا فضلاً عما تدعم به الدول الصناعية الكبرى إنتاجها وصادراتها مما يؤدي إلى انخفاض أسعارها، فيؤدي إلى انهيار الناتج المحلي للدول النامية، وهي سياسة شيطانية كما ترى تهدف إلى إنهاك الدول النامية حتى يتم إحكام القبضة عليها بعد ذلك : يدلك على هذا أن هذا الدعم قد وصل إلى ٥٦٠ مليار دولار أمريكي في العام الواحد، وهو يعادل حوالي سبعة أضعاف المساعدات التي كانت تمنح للدول النامية[٢].

أمريكا تتزعم الحركة الليبرالية الجديدة متأثرة بآراء ميكا فيلي:

ويبدو أن الليبرالية الجديدة أو العولمة قد وجدت لها سنداً قوياً من زعامة أمريكا لنظام العولمة أو ما يعرف بالنظام العالمي الجديد وهي زعامة تعيد العالم إلى شريعة الغاب "القوي فيها يأكل الضعيف ولا موضع فيها للشفقة أو الرحمة، فالأكثر قدرة على المنافسة هو الأوفر حظا في الفوز، إذ المعايير هي للأكثر قوة وذكاء وقدرة وقد ساهم في ذلك وبشكل مباشر ما يتم من مؤامرات منظمة بين صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والبنك الفيدرالي الأمريكي وهي ما عرف "بتوافق واشنطن "[٣].

وقد بلغت أمريكا في ضغطها لبلوغ هذا الأمر مداه مبلغاً لا ينكر متبنية في ذلك سياسة فيلسوف الليبرالية ميكا فيلي الذي قرر أن السياسة لا تخضع للدين ولا للأخلاق، وأن لها قواعدها المتقلبة، وأنها فن يتيح استعمال جميع الوسائل بدون استثناء ولا شأن له بالخير والشر، وعلى ما قعَّد ونظَّر هذا الفيلسوف قامت مفاهيم النظام السياسي للديمقراطية الليبرالية ملخصة في قوله إن الغاية تبرر الوسيلة[٤].

---

(1) فخ العولمة ص ٢٤

(2) فخ العولمة ص ٢٥ .

(3) انظر : ما بعد العولمة ص ١٠٧

(4) انظر التجربة الغربية في بلاد المسلمين ص ٨ .

وتبني سياسات هذا الفيلسوف الليبرالي تفسر لنا ما يقوم به القائمون على وضع السياسة الخارجية الأمريكية من مبالغة في استعمال القوة، وبطش هنا وهناك في محاولة منها إلى إجبار العالم كله لأن يسير وراءها على النظام الأمريكي في الحياة وصبغ العالم كله بطابع واحد مدعية أنها إنما تقاوم الإرهاب وتحاول القضاء على أسلحة الدمار الشامل، متخذة من ذلك غطاء وستاراً لإرهاب الشعوب وإجبارها على قبول العولمة والنظام العالمي الجديد، كما فعلت في أفغانستان والعراق وما تحاوله من فرض السيطرة على منابع البترول والثروة في العالم متخذة من شريعة الغاب وسيلة إلى قهر الشعوب وإخضاعها.

ولقد خطت في ذلك خطوات أخرى بعد أن خلا لها الجو بانتهاء الحرب الباردة محاولة أن تفرض سيطرتها على مجلس الأمن وسائر المنظمات الدولية لفرض السيطرة والإخضاع على شعوب العالم بل إنها تقدم على فرض عقوبات بما تفرضه من قوانين حظر التجارة كما حدث مع كوبا وليبيا وإيران من خلال قوانين " كندي ـ أماتو " وهملس ـ بورتون " وهي في ذلك تطلب من العالم كله تنفيذ هذا الحظر ملوحة بالويل لمن لا يستجيب[1].

وبعد هذا السرد لمخادعات العولمة ونظامها الجديد ومساوئها ومحاولة فرض الولايات المتحدة طروحاتها بالقوة يصح عندئذ قول القائل " عن من لا يزال يؤمن بالنيو ليبرالية والعولمة فهو مجرم في أسوا الأحوال أو غبيٌ في أحسنها "[2].

والعولمة بهذه الصورة ابتداء من الخلفية الذهنية التي يحركها ومروراً بمخادعاتها ومساوئها وانتهاء بما ترمي إليه من تكريس السلطة في يد رأس المال وما يستتبع ذلك من استعباد فئة قليلة من ملاكه للأغلبية العظمى من سكان العالم ثم المضي في تنفيذ ذلك بالقوة والقهر، هي جناية على البشرية كلها ترتكبها المدنية الحديثة في بداية القرن الواحد والعشرين، بداية الألفية الثالثة التي بشر مروجو العولمة أنها الألفية السعيدة.

ثانياً: ما الحداثة التي نريدها؟

لا شك أن المتأمل لحال الشرق الإسلامي يجد أنه في حاجة إلى تحديث أوضاعه أو إن شئت فقل إلى إصلاح أوضاعه، يستوي في ذلك ما كان منها خاصاً بالجانب الإنساني أو ما

(١) انظر حاجة العولمة إلى قانون عالمي ص ١١٥
(2) ما بعد العولمة ص ١٠٦

كان خاصاً بالجانب المادي، فأما الجانب المادي فلا خلاف عليه كما سبق القول ـ فنحن مأمورون بعمارة الأرض ومستخلفون فيها ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ (سورة البقرة: ٣٠) وأما الجانب الإنساني فهو الأساس الذي ينهض بكل جوانب الإصلاح ـ إن أحسن تدبيره ووضع في موضعه اللائق به. ولقد جربت الأمة طرقاً من الإصلاح قبل ذلك منها ما كان نابعاً من الشرق، مع شيء من التعديل، فما سعدت الأمة وما وصلت إلى ما أرادت، ومنه ما كان نابعاً من التجربة الغربية الليبرالية، فما زادت البشرية في الشرق بها إلا عنتاً وفساداً، فإذا أضفت إلى ذلك أن ثلاث الموجات السابقة العلمانية، والحداثة، والعولمة، أو النظام الجديد قد جاءتنا من الغرب وقد ظهر مما سبق عرضه أن أسسها ومنطلقاتها الفكرية المحركة لها لا تتمشى ولا تتفق مع مواريثنا، كما ظهر أنها إفرازات بيئات تخالف بيئة الشرق الإسلامي ـ ومنه مصر بطبيعة الحال ـ ومن هنا كان لابد من التصدي لها ومحاولة طرح البديل الذي يصلح أمورنا ومن هنا كان المخرج من كل ذلك أن تعود هذه الأمة إلى هويتها بصدق فما صلح به سلفنا واعد بأن يصلح الخلف مهما كانت مسافة الخلف عند صدق النية وجدية العمل.

ومن هنا كان كل برنامج إصلاحي يرجى منه إقالة عثرة الأمة لابد أن يراعي فيه تحقق الأسس والمنطلقات التالية [1].

١ـ الارتكاز في مبادئ الإصلاح هذه على ثوابت الأمة وقيمها.

٢ـ مراعاة الواقع وملاءمة الظروف.

٣ـ تحقيق آمال هذا الشعب وطموحات هذه الأمة.

٤ـ إن رد البشرية إلى خالقها هو الطريق الوحيد لخروجها من جميع أزماتها أيا كان نوعها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقد طرحت جماعة الإخوان المسلمين برنامجا على أربعة عشر مجالاً للإصلاح راعت فيه هذه الأسس والمنطلقات، في مارس عام ٢٠٠٤م بعنوان "مبادرة الإخوان المسلمين حول مبادئ الإصلاح في مصر" وقد تبادلتها في المؤتمر الماضي مؤتمر الإصلاح وتنمية ثقافة

(1) الإصلاح في ضوء تكامل التخصصات ص ٧.

المشاركة الشعبية " وقد عرضت لجوانبها الإصلاحية مع شيء من النقد حتى يمكن الإفادة منها على الوجه المطلوب[1].

أولاً : أن الله تبارك وتعالى خالق البشر والكون بما فيه، والخالق أعلم بما خلق من علم المخلوق بنفسه، ولذلك أمر ونهى وشرع لمن خلقهم ﴿. . . أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّـهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤) ومن هنا تولى رب العزة سبحانه البشرية كلها بعنايته، بمتابعة إرسال الرسل ليوضحوا للناس سبيل الهدي ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حكيماً﴾ (النساء : ١٦٥) ومن هنا بين الله تبارك وتعالى غاية الخلق الإنساني حتى لا يضل الناس الطريقة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذرايات: ٥٦) أي : إلا ليطيعوني فالعبادة في اللغة تعني مطلق الطاعة، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ﴾ (الملك: ١ ، ٢).

ثانياً :ـ إن الله قد رتب على الطاعة له والاستجابة له السعادة في الدنيا بعدم الضلال والشقاء فيها، والنجاة في الآخرة من النار وعذابها، كما رتب سبحانه على معصيته وعدم الاستجابة له أصنافاً من المتاعب والعذاب منها الشقاء والضلال والضنك في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿. . . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى * وكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (طه: ١٢٣ـ ١٢٧) .

ثالثاً :ـ إن الإصلاح الحقيقي يكون برد الناس إلى خالقهم بإتباع منهج الله وتحكيمه فيما بينهم، فهو منهج الله اللطيف الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا قال تعالى عن نفسه: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤) (الأعراف: ٥٤) لذا كان تشريع الله للبشرية هو التشريع الحكيم المناسب، فهو خالق كل البشر وهو ربهم جميعا وإلاههم، وهو أعلم بهم من علمهم بأنفسهم وهو في تشريعه لا يحابي أحدا على

(1) انظر : الإصلاح قراءة في ضوء تكامل التخصصات – المؤتمر الثاني لكلية الآداب جامعة عين شمس وفي ظل المرتكزات الأربعة السابقة لابد من التأكيد على النقاط التالية عند الإقدام على عملية الإصلاح ورفع الفساد (انظر : الإصلاح قراءة في ضوء تكامل التخصصات ص ٢، ٣، ٤ .

حساب أحد، وإنما ميزان التفاضل بين البشر ميزان مطروح، لكل أحد وهو التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿. . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣) وقال رسول الله ﷺ فيما معناه الناس سواء كأسنان المشط.

رابعاً: ـ إن آخر صورة إصلاحية جاءت من الله إلى البشر هي رسالة الإسلام الموحي بها إلى الرسول محمد ﷺ وعندما أحسن الناس تمثلها والقيام بها وأحسنوا ربط قلوبهم بالله خالقهم، أصلح الله بها جميع أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والعقدية، في فترة وجيزة لم تجاوز ثلاثة وعشرين عاما، إذ في طاعة الرسول طاعة الله، وفي حبه حب الله، ولذلك ربي جيل الصحابة تربية مثلت نواة الإصلاح للعالم اجمع، والتربية على هذا المنهج واعدة اليوم بأن تصلح فينا ما أصلحت في سلفنا، لذا أمرنا الله تعالى برد ما نتنازع فيه إلى الله وإلى الرسول، ونبه الرسول الكريم إلى أن اتباع كتاب الله وسنته تعصم من الضلال، يقول ﷺ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما " كتاب الله وسنه نبيه ") (١).

خامسًا: وقد جعل الله علامة الإيمان الصادق تحكيم الرسول ﷺ فيما يقع ويجد بينهم قال تعالى: ﴿. . . ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥) أي ويخضعون خضوعاً لأمر الله ورسوله راضين بذلك ومن هنا فإن البشرية عندما تسلم نفسها لغير الله تعالى فإنها تصاب بالشقاء والتعاسة كما وقع لدول الحزام الشيوعي الذين وعدوا بأن تتحقق لهم جنة الله على الأرض في الحياة الدنيا، وكما يقع الآن في الدول الرأسمالية التي تشقى وتتلظى بنيران الهروب من تسليم نفسها لله تعالى وإن حققت تقدماً مادياً هائلاً، يوشك أن يجلب الدمار على البشرية بأسرها.

سادساً: إن الكلام عن الإصلاح في مصر، إنما هو كلام عن الإصلاح في كل العام العربي والإسلامي، فنحن أمه واحدة ذات شعوب متعددة، ذكرنا الله خالقنا بذلك فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) وقال: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

سابعاً: إن الحاجة إلى الإصلاح برد البشرية إلى ربها عبارة عن ضرورة بشرية وفريضة

(1) موطأ مالك ح٢/ ٣٢١ كتاب القدر باب القول بالقدر.

شرعية ربانية، فأما كونها ضرورة بشرية فلأن الحياة لا تستقيم بغيرها، ولذا فقد أمر الله خاتم النبيين ومن معه بالاستقامة على شرع الله تعالى فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢) وقال: ﴿... وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ...﴾ (الشورى: ١٥).

وأما كونها فريضة ربانية فلأنها عندئذ تكون استجابة لأمر الله ومصداق إخلاصنا لله، فهو كما قال عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

ومن هنا كانت حاجة مصر إلى الإصلاح على هذه الصورة ومعها الدول العربية والإسلامية، ليست وليدة ضغط خارجي يمليه قادة هجمة العولمة بما يحقق لهم مصالحهم، وإنما لأن الإصلاح بهذه الصورة يمثل تمثيلاً حقيقياً صدق استجابتنا لما نحيا به الحياة الكريمة في الدنيا والآخرة مصداقاً لما نزل من الوحي من أكثر من ألف وأربعمائة عام وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّه وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١).

ثامناً: الإصلاح بهذه الصورة برد الناس في مصر والبلاد العربية الإسلامية إلى منهج الله الذي يمثل خير عاصم لهذه الأمة من الذوبان في هوية الغير ممن تأتينا رياح التغيير من قبلهم ـ بربط الأمة بثوابتها التي لا تتغير ولا تتبدل، وهو مطلب ضروري للاحتفاظ بخصوصيتنا وعدم الذوبان في ذوات وهوية المعولمين.

تاسعاً: إقامة السوق العربية المشتركة تمهيداً لإقامة السوق الإسلامية المشتركة مما يقلل من آثار ومساوئ السوق العالمية.

عاشراً: مراعاة البعد التربوي على ربط الناشئة بالله خالقهم في جميع محاضن التربية والتعليم لنصل إلى الفرد القوي في دينه وخلقه ليكون لبنة المجتمع المتماسك اللبنات، مع عدم تعجل الخطوات لنصل من الفرد المتماسك إلى المجتمع المتماسك إلى الدولة المتماسكة التي يصعب على من أرادنا بسوء أن يزحزحها عن طريقها.

مراجع البحث

١ـ القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢ـ بينات الحل الإسلامي، وشبهات العلمانيين والمتغربين . د . يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٨٨م ط . ١ .

٣ـ حاجة العولمة إلى قانون عالمي، حوار مع ميري دلماس مارتن ترجمة إدريس هاني – مجلة الكلمة العدد ٤٣ السنة ١١ عام ٢٠٠٤م .

٤ـ زعامة واستقرار النظام الدولي، حوار مع سوازن سترونج، ترجمة إدريس هاني (مجلة الكلمة عدد ٤٣ السنة ١١ عام ٢٠٠٤م) .

٥ـ عن العولمة إدوار غالينو ترجمة هشام الميلودي (مجلة الكلمة عدد ٤٣ السنة (عام ٢٠٤م) .

٦ـ العولمة وما بعدها المستقبل بين أحلام الإنسان ومارقة . إدريس هاني (مجلة الكلمة العدد ٤٣ السنة ١١ عام ٢٠٠٤م) .

٧ـ فخ العولمة، الاعتداد الديمقراطية والرفاهية، هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، عالم المعرفة، الكويت عدد ٢٩٥ أغسطس ٢٠٠٣م .

٨ـ مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والإسلام، يوسف كمال محمد طبعة المختار الإسلامي – القاهرة، عام ١٩٧٤م .

٩ـ ما بعد العولمة : حوار مع البروفيسور عمر أكتوف، أجرى الحوار هشام الميلودى (مجلة الكلمة ٤٣ السنة ١١ عام ٢٠٠٤م .

١٠ـ محاكمة جارودى : ترجمة عزة صبحي، دار الشروق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م .

١١ـ نهاية العولمة : جوي غراي ترجمة هشام الميلودى (مجلة الكلمة العدد ٤٣ السنة ١١ عام ٢٠٠٤م)

١٢ـ ورقة ثقافية في الرد على العلمانيين د . محمد يحيى . الزهراء للإعلام العربي عام ١٩٨٥م .

obeikandl.com

الفصل الرابع

(الحكمة الإيمانية) شرط التقدم العلمي

أ.د. محمد السعيد جمال الدين(*)

تُعنى هذه الورقة بعرض خلاصة لآراء المفكرين ودعاة الإصلاح حول الشرط الأساسي اللازم للتقدم البشري الخلاق ذي الطابع الإنساني والصبغة الأخلاقية وهو ما سموه "الحكمة الإيمانية".

والحكمة الإيمانية وإن كانت تعتمد المعرفة الحسية كمعيار صحيح للحكم على الظواهر، لكنها تتجاوز هذه المعرفة إلى نوع آخر أكثر عمقًا وشمولاً، وترى أن الوقوف عند مجرد المعرفة الحسية ينطوي على الضلال، فلابد للمعرفة الحسية من غاية تدركها وهي الاستدلال بالمصنوع على الصانع وبالمتحرك على المحرك، وحينئذ تتأدى تلك المعرفة الإيمانية التي بها تكمل كل معرفة معتمدة على الحس.

وقد لاحظت أن العلم الحديث قد أسقط "الحكمة الإيمانية" من منظومته. وكنت منذ بضع سنين قد شُغلتَ مع عدد من المفكرين المصريين بقضية "حوار الحضارات"، وعكفنا طويلاً على دراسة أوجه التفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وكم كانت دهشتنا جميعًا حين تبين لنا إلى أي حدٍّ صدقت مقولة الأمير "شارلز" ولي عهد إنجلترا بأن الحضارة الإسلامية تعد مكوّنًا أساسيًا من المكونات التي قامت عليها الحضارة الغربية والتي نهض عليها العلم الحديث، وأن جانبًا كبيرًا من التقدم العلمي الذي أحرزته الحضارة الغربية إنما يُعزى إلى الإنجازات العلمية والمنهجية الرائعة التي حققها العلماء المسلمون في عصور الازدهار.

لكنني اكتشفت مؤخرًا ومن خلال قراءاتي لكتابات روّاد الإصلاح في العصر الحديث أن هذا التأثير (وإن كان حقًا لا مراء فيه) لا يعني أن العلم الغربي هو مجرد امتداد للعلم

(*) أستاذ دكتور.

الإسلامي؛ فالأسس المعرفية التي يقوم عليها كل واحد منهما متباينة أشد ما يكون التباين مختلفة أشد ما يكون الاختلاف.

ولعل ذلك يرجع ـ أول ما يرجع ـ إلى نظرة كل منهما لعالم الإيمان، والوحي.

فالأساس المعرفي للإسلام يقوم على وحدانية الله، وعلى أنه متعال عن خلقه مهيمن عليه. كما يقوم على ترابط الكائنات بعضها ببعض، وعلى الوحدة السارية بينها.

فالعالم كله ـ في نظر الإسلام ـ يتطلع إلى "المثل الأعلى"، إلى الله، ينشده ويبحث عنه ويسعى إليه ويحاول التقرب إليه والاتصال به، والله ـ تعالى ـ من جانبه يرعاه ويحفزه ويستجيب له؛ مما يولّد هذه الحركة الدؤوب في الكون، وينتج عنه هذا الانفعال الروحي الذي يرتقي بالإنسان ـ أفضل الكائنات ـ إلى سقف الفلك الأعلى متجاوزاً الكون كله، كما يقول الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي.

كل ما نراه في الكون إنما هو مثير للدهشة، يذكرنا بقدرة الله وحكمته، يمنحنا كل لحظة حياة جديدة، ويشعرنا بالحياة الحرة المتجددة، ويصلنا بالحي الذي لا يموت، فما هذا الجمال في الطبيعة إلا تجل ـ وإن كان محدوداً ـ لجمال الحق تعالى، وما هذه الرحمة التي نراها في رأفة الدابة بوليدها وحنانها عليه إلا انعكاساً لجزء صغير من أجزاء الرحمة بخلقه.

ما تشاهده من مظاهر الطبيعة من حولك ما هو إلا صدًى للأسماء الحسنى: القادر، القاهر، الجليل، الصانع، المبدئ، المعيد... ما تشاهده من مظاهر من حولك ما هو إلا انعكاساً للصفات العُلا.

وينفعل العلم الإسلامي انفعالاً عميقًا بهذا التصوّر، فيربط المستويات الدنيا في الوجود بالمستويات الأعلى. ويبدو هذا العالم المادي في نظره هو أدنى المستويات في السُّلَّم الهرمي للوجود، لكنه على كل حال مرتبط بما فوقه من مستويات ومراتب.

بل يتاح لأرقى الكائنات فيه، وهو الإنسان، أن يتنقل في سلَّم الوجود صاعداً من الأدنى إلى الأعلى، ولتسمحوا لي أن أستخدم تعبيرات جلال الدين الرومي مرة أخرى، يتحدث الإنسان عن نفسه معبراً عن أن الإنسان إنما يتمثل في نفسه مراتب الكائنات كلها من جماد ونبات وحيوان، وهو ينطلق في تطوره الدائب إلى حيوات أخرى لا يدركها عقل.

خلقت من تبر وحجر، ثم ابتسمت في ثغور زهرات عديدة الألوان، ثم جبت مع الوحش فوق البسيطة والأنهار والبحار، وحبوت على بطني وعدوت على رجليّ، ثم تشكل سرّ وجودي فإذا أنا إنسان. ثم أمضي متجاوزًا الأفلاك متجاوزًا الملائكة، وهناك، أمضي فوق الليل والنهار، فوق الحياة والموت.

هذه هي النظرة الإسلامية للعالم، وهي نظرة تختلف كل الاختلاف عن العلم الحديث.

فالعلم الحديث يرى أن العالم حقيقة منفصلة عن الله، حقيقة مستقلة قائمة بذاتها، نعم، في أحسن الأحوال ربما يكون الله ـ تعالى ـ قد خلق العالم، شيّده وبناه، وأحكم بناءه، لكن هذا البيت الذي تم بناؤه قد أصبح حقيقة مفردة قائمة بنفسها معتمدة على ذاتها. ولم يعد بحاجة إلى من قام ببنائه، فتدخُّل الله في إدارة شئون العالم أمر لا يجد قبولاً في النظرة العلمية الحديثة.

ولما كان العالم موضوعًا قائمًا بذاته، أصبح خاضعًا لمقاييسه هو، بمعنى أنه خاضع للقياس الكميّ والرياضي. ورغم أن العديد من مظاهر الوجود لا يخضع لهذا النوع من القياس الكمي فإن أساطين العلم الحديث لا يأبهون بذلك، ولا يلتفتون إليه.

ولما كان العقل هو مناط الحكم على العالم، بالمقاييس الرياضية والكمية، بدا في نظر العلم الحديث هو القادر وحده على تصريف شئون هذا العالم، دون تدخُّل من خارج، ودون تدخُّل من الوحي، ودون تأثر بالجوانب اللاهوتية والفلسفية، التي تبدو مستبعدة ـ بصورة منهجية من "العلم" ـ حسب تعريف هذا المصطلح في الغرب منذ النهضة العلمية.

* * *

وربّما يرجع هذا التناقض في الأسس المعرفية بين العلمين الإسلامي والغربي إلى أن العلم الحديث ولد في القرن السابع عشر حين ثارت الفلسفة الأوربية نفسها ضد الوحي وضد النظرة الدينية للعالم.

وقد تدعّم هذا التوجُّه حين جاء داروين بنظرية النشوء والارتقاء، التي تقول بأن الأشكال العليا للحياة تطورت بصورة ارتقائية عبر الزمن من أشكال دنيا، وأن يد الله ـ تعالى ـ قد استُبعدت من تكوين مختلف الأنواع ومن التطور التاريخي للكون، وأنه لا يوجد هدف للتطور بل هو يعمل من خلال "صراع" بين مختلف الأنواع، وبقاء الأصلح.

وحين أصبحت هذه النظرية تطبق في علوم أخرى أخذت تُباعد بين العلم والدين، كما قضت على المعنى الروحي لخلق الله وقداسة هذا الخلق، وبددت الشعور بالوعي المستمر بوجود الله بوصفه خالقًا ورازقًا وواهبًا لأشكال الحياة، كما يصفه القرآن الكريم والكتب المقدسة.

وقد وُجِّهت إلى هذه النظرية الداروينية انتقادات تدحض في صلاحيتها، لكن قوة أنصار الداروينية ونفوذهم أدى إلى إهمال كل نقد. ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن هذه النظرية ـ كما يقول الدكتور سيد حسين نصر الأستاذ الإيراني في جامعة جورج واشنجتون ـ إنما هي أحد أعمدة العلم الحديث، وأن المذهب الارتقائي إذا ما تقوض فإن البنية التي يقوم عليها العالم سوف تتقوض في مقابل التسليم برؤى وتصورات تتبناها حضارات أخرى. ولذلك يستمر تدريس النظرية في الغرب كحقيقة علمية، لا كمجرد نظرية فحسب، ولا يزال من يعارضها يجرى إسكاته بشكل أو بآخر بوصفه أحد الظلاميين الدينيين.

* * *

ومن أهم ما يميز العلم الحديث مذهب الاختزالية العلمية، ويشير الأستاذ سيد حسين نصر في بحثه عن العلوم الحديثة إلى أن مجموعة كاملة من فروع المعرفة (وهي العلوم الاجتماعية أو العلوم الإنسانية) أصبح كل منها يحاول مضاهاة أساليب العلوم الفيزيائية، حيث يحاول كل منها بلوغ أقصى درجة من قابلية التقدير الكميّ أو "الدقة".

ثم هناك دافع فلسفي كامن وراء منظومة العلم الحديث يرمي دائمًا إلى الهبوط بما هو أعلى إلى مرتبة الأدنى، مثلما فعل ديكارت من قبل، فقد تم اختزال الروح **Spirit** إلى مرتبة النفس **Psyche**، والنفس إلى نشاط بيولوجي، والحياة إلى مادة جامدة، والمادة الجامدة إلى مجرد جسيمات كمية أو حزم من الطاقة يمكن قياس حركتها وقياس كميتها،

ولعل ذلك راجع إلى إيمان ديكارت بمقولته التي طالما رددها وهي أن "الجوهر المادي هو الحقيقي".

فهذا الدافع الفلسفي لا يسمح بأن يُعزى إلى الحياة حقيقة ترتفع فوق المكونات المادية التي تشكّل مجرد خلية حية، ولا أن يُعزى إلى النفس أية حقيقة تتخطى النشاطات البيولوجية للجسم، ولا أن يعزى إلى الروح أية حقيقة تتعدى نشاطات النفس، ويتم مسخ الإيمان بالله إلى عقد نفسية.

والمشكلة في الأمر برمته أن هذه النظرية ترفض أي أسلوب آخر من أساليب المعرفة، وأنها أخذت تؤكد أن النظرة الدينية إلى الكون غير ذات موضوع، وأن الدين ليس إلا مجرد أخلاقيات وقضايا ضميرية خاصة، منتقاة انتقاءً مجافيًا للموضوعية، مما أدى إلى محو "الدهشة" التي يشير إليها القرآن الكريم، وإزالة الفكرة الدينية الأساسية لظاهر الطبيعة التي يجليها الله في عملية خلقه: "ألم تر"، "أولم يروا"، "والله خلق"، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ. . . ﴾ (إلى آخر الأيات الكريمة من سورة النور: ٤٣).

* * *

ومن أظهر مظاهر العلم الحديث دعم الحكومات لهذا النوع من المعرفة القاصرة على معطيات الحس، لا حبًا للمعرفة في ذاتها وإنما حبًا في السلطة والثروة.

لقد كان من أهم خصائص العلم الحديث ـ وهو ما يميزه بوضوح عن العلم الإسلامي ـ هو أن هدفه كان منذ البداية السيطرة على الطبيعة، وهو ما عبّر عنه الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون، وأدى إلى أن الحكومة البريطانية بدأت منذ القرن السابع عشر في دعم العلوم، من أجل تحقيق المزايا الاقتصادية والعسكرية.

وهنا ظهرت قضية تتعلق بالمسئولية الأخلاقية للعلماء، بعد اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية، وما أحدثته من دمار هائل، فضلاً عن الأساليب العديدة التي تعمل على تدمير البيئة مما يهدد نسيج الحياة على الأرض.

وقد نشأ هذا الموقف نتيجة للفصل بين العلم والأخلاق، وهو الفصل الذي ميّز العلم الحديث منذ ولادته، لأن مصالح البشر بعامة لا تؤخذ في الحسبان، وقد بقيت قضية المسئولية هذه واحدة من أهم معضلات العالم الحديث.

* * *

بقيت قضية التكنولوجيا، أي تطبيق العلوم في الواقع، وهي بالطبع ليست مرادفًا للعلم، ولكن بدأ التحالف الوثيق بينهما منذ ظهور الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، مما زوّد الإنسان الحديث بقوة كبيرة جعلته يسيطر على كل من الطبيعة والحضارات الأخرى التي تعوزها نفس الوسائل التكنولوجية، فضلاً عما حصّله من ثروات ضخمة.

وقد بدأت في الغرب الحديث موجة من العداء للتطبيق غير المحدود للتكنولوجيا الذي يمكن أن ينتج عنه تدمير البيئة الطبيعية بل زوال الحياة البشرية عن وجه الأرض.

* * *

علينا الآن أن نخلص إلى نتيجة لهذا البحث:

فما قدمناه في إيجاز واختصار يدلّنا على أن تبنِّي منظومة العلم الغربي (بجانبيها العلمي والتكنولوجي) بهدف تحقيق التقدم لن يدفع بنا إلى الأمام قيد أنملة، بل سيُلحق الضرر بنا من كل الوجوه، وسيؤدي بنا إلى التنكّر لمقومات هويتنا وتراثنا، كما سيؤدي إلى نزع الطبيعة الإنسانية عن شعوبنا، وإلى القضاء على روح التراحم والتكافل فينا.

ولا نعني بهذا أبدًا أن نرفض العلم الحديث بل هي محاولة لتصحيح مساره.

والعالم العربي والإسلامي ـ ومصر في القلب منه ـ مطالب الآن باغتنام هذه الفرصة التاريخية بعد أن أفرغ العلم الحديث ما في جعبته ومضى في طريق لن يُفضي إلا إلى دمار البيئة فتبدت بوضوح النتائج المدمرة التي ترتبت على منظومته.

بوسع العلماء العرب والمسلمين أن يغتنموا هذه الفرصة بإجراء مصالحة بين العلم والنظرة الدينية، وتطبيق العلوم على أساس من الحفاظ على الحياة الإنسانية والبيئة التي يعيش فيها الإنسان، والتوجه بالعمل العلمي والنشاط البحثي والتطبيقي إلى آفاق أعلى لخدمة الناس ومعرفة الكون واقتفاء أسراره لا للسيطرة عليه بهدف تغيير وجهته (فهو منقاد

بطبعه للإنسان) بل لحسن التكيف معه وجعله سلّمًا للرقي المادي والروحي معًا والاستدلال به على معرفة صانعه ومدبّره.

فإن فعلنا ذلك فربما فُتحت لنا عوالم جديدة من المعرفة والإبداع والابتكار هي غائبة بالتأكيد عن أولئك الذين باعدوا بين العلم والروح الذي يتعين أن تجلله، ولم نتخل بذلك عن حمل أمانة الخلافة التي أودعنا الله إياها فنشترك في بتدمير الحياة عليها من أجل الالتحاق بالغرب.

obeikandl.com